أبن خلدون

سيرته

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بـأبن خلدون ، ولد في تونس عام (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م).ويشير أبن خلدون أن اسرته ترجع الى أصل عربي يماني ، لقد تتلمذ أبن خلدون على يد أبيه وعلى يد علماء آخرين في تونس. حيث درس القرآن الكريم والعلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه.

كما أن أبن خلدون توافر على درس علم الكلام وعلوم اللغة العربية ، كان أبن خلدون طموحاً جداً ، فيتقرب من الأمراء في بيئة منقسمة سياسياً إلى إمارات متنافسة ومتنازعة ، ولقد تقلد مناصب متنوعة لدى سلاطين عصره.

أن التجربة السياسية الشخصية والخلفية العلمية وحياة التنقل والممارسة القضائية أكسبت أبن خلدون تميزاً واضحاً فيما سطره من أفكار ونظريات وتحليلات ، في مقدمتهِ الشهيرة ، مما جعل بعض الكتّاب إلى وصفه بأنه (المنشئ الأول لعلم الاجتماع) والى وصفه (امام ومجدد في علم التاريخ) ،وكذلك فإن تأليفه (كتاب التعريف بـأبن خلدون) قد اقضى الى وصفه بأنه امام ومجدد في فن ترجمة المؤلف لنفسه.

لقد وصف أبن خلدون بأنه كان أشعري السلوك في حياته الشخصية ، فقد كان (يعتقد أن العقل قاصر عن إدراك الحقائق الماروئية والغيبية ، ولذلك نراه في حياته الشخصية والعلمية يعول على الشرع وحده)، أما في حياته الفكرية كما يتضح في كتاباته (فإنه معتزلي التفكير يعتمد على العقل والأقسية المنطقية وطبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار).

تُوفي أبن خلدون في القاهرة عام ٨٠٨هـ /١٤٠٦م.

افكاره السياسية

- **ضرورة الأجتماع الإنساني والحاجة الى الحكم**

يعتقد أبن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضرورة لازمة وشرط حتمي للمدينة والحضارة ، فهو ضروري لإشباع حاجات الإنسان الأساسية من مأكل وملبس وأمن على النفس ، لان بدون الاجتماع يصبح وجود الناس ناقصاً وتكون إرادة الله في اسكانهم الارض غير تامة.

وهنالك طوران – مرحلتان - متعاقبان للاجتماع الإنساني:

الطـور الأول: طـور البـداوة، وهـو طـور الاسـتحواذ علـى ضـروريات الحيـاة مـن حيـث البحث عن الغذاء والزراعة وتربية الماشية.

الطـور الثـاني : طـور الحضـارة ، وهـو طـور الرغبـة فـي الاستحصـال علـى كماليـات الحيـاة ، حيـث تظهـر الفنـون والصـناعات التـي تحـل محـل الضـرورات الحياتيـة المميـزة للطور السابق.

ويـرى أبـن خلـدون أن الملـك (بمعنـى الحكـم) (أمـر طبيعـي للبشـر) و(أنّ كـل اجتمـاع إنسـاني بحاجـة إلـى و ازع أو حـاكم يقـيم العـدل ويـدفع بعـض النـاس عـن بعـض) ، ويكـون الحكم لـمن :

- يستعبد الرعية
- يجبي الأموال
- يبعث البعوث (يحارب العدو)
- يحمي الثغور (الحدود التي يخشى منها مجئ العدو براً او بحراً)

فالحاكم هو الذي لا تكون فوق يده يداً قاهرة.

- **العصبية والرئاسة في طور البداوة**

يبـين أبـن خلـدون ان العصـبية هـي **(النعـرة علـى ذوي القربـى وأهـل الأرحـام ان ينـالهم ضيم او تصيبهم هلكة)**

والعصبية تشمل :

- المرتبطين بالنسب الواضح ومن تعلق بهم عن طريق المصاهرة.
- الانتساب بالولاء أو الحلف .

إلاَّ ان النسب لا جدوى منه دون ارتباطه برابط المصلحة او الجيرة .

ويتضـمن المجتمـع عصـائب ملتحمـة متفاوتـة فـي القـوة الاَّ ان هنـاك عصـبية واحـدة فقـط تعتـرف لهـا كافـة العصـائب بالشـرف والتقـدم والمنعـة وتكـون لهـا حتمـاً الرئاسـة ، وحينمـا تضـعف العصـبية المتمتعـة بالرئاسـة تنبـري بـاقي العصـائب لمنازعتهـا ، ومـن ثـمَّ تحـوز الرئاسة أقوى العصائب المتنازعة.

والـرئيس المعتمـد علـى العصـبية فـي مرحلـة البـداوة يكـون حكمـاً فـي منازعـات قومـه وخادماً لهم اكثر من كونه متسلطا عليهم .

- **تحقيق الملك ونشأة الدولة**

يبين أبن خلدون انه بعد ان تنال العصبية بالرئاسة وتزداد سلطتها وثروتها تطمح الى سلطة الملك الاعلى التي تتجاوز الرئاسة البدوية ، كي يتحقق لها الاستبداد بالحكم ويرجع ذلك لامرين:

- العصائب في البدو لا ترضى بان يستبد بعضها ببعض.
- كما ان ما تمتلكه العصبية من ثروة لا يمكنها الإفادة منها في البادية لافتقارها الى أوجه الترف.

عندما يعزم أصحاب الرئاسة البدوية الانتقال من البداوة الى الحضارة يكون الانتقال اما :

- بهجرة البادية الى مكان قد سبقت اليه الحضارة.
- وأما ان ينقلب جانب من تلك البادية حضراً بجلب عوائد الترف اليه.

يتحقق الملك لصاحب العصبية المنتقلة بالتغلب عن طريق إخضاع من تحت يده ، وفي هذه الحالة فان الملك يدعو الى النزول ذوي عصبيته الى المدن او الى إنشائها طلباً للراحة والاستقرار وحباً بالترف ، وما يفضي اليه ذلك من عمارة الدور وإنشاء البساتين وتحقيق الرفاه وإتساع الأحوال ، وهكذا باتساع الملك في المدن تنشأ الدولة.

- **ماهية الدولة**

يقول أبن خلدون بإن الدولة تعني **(إدارة الملك والدفاع عنه).**

فالملك في مرحلة الحضارة محتاج الى من يعاونه في الحكم والدفاع عن الملك فتنشأ المرافق المختلفة : القضاء والجباية والجيش والأسطول وتلك هي الدولة.

وعندما يعالج أبن خلدون أطوار الدولة يشبه **(الأسرة الحاكمة)** في تفاصيل حكمها وقوتها وضعفها وانهيارها بالدولة .

كما يشبه أبن خلدون الدولة بـ (**الكائن الحي**) فهي تولد وتنمو ومن ثم تهرم وتموت. وأيضا لها مزاجها الخاص في التعامل مع الرعايا.

واذا كان أبن خلدون يفهم الدولة على انها (إدارة الملك) أو انها (الأسرة الحاكمة) فانه تشبيهها بالكائن الحي وكأنها شخص حي ، وهذا الشخص هو **شخص السلطان وصاحب الامر بالذات.**

- **أجيال الدولة**

إن الجيل (**هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء الى غايته**) أي ان الجيل ينطوي على وحدة زمنية ؛ أي

متوسط عمر الشخص الواحد من الناس ، وان عمر الدولة في معتقد أبن خلدون لا يتجاوز في الغالب الثلاثة أجيال.هذه الأجيال يقسمها أبن خلدون كالآتي:

- **الجيل الأول** : هو الجيل البدوي الذي لا يزال يقدس قيم البداوة وشظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، وان روح العصبية لا تزال حية في هذا الجيل.
- **الجيل الثاني**: هو الجيل الذي تحول حاله من البداوة والقساوة الى الحضارة والحياة المتمدنة ومن الخشونة الى الترف ومن المشاركة في المجد الى الى سعي كل فرد للانفراد بها ، وفي هذا الجيل تنحسر قيم البداوة والعصبية ولكن لا تغيب مطلقاً عنهم.
- **الجيل الثالث** : هو الجيل الذي ينسى حياة البداوة والخشونة وكأنها لم تكن موجودة ، ويبلغ فيه الترف والعز غايته ، ويصبح ابناء هذا الجيل عبئاً على الدولة ، وعندما تتعرض الدولة الى خطر فان الملك سيطلب نجدة المرتزقة – حتى يأذن الله بانقراضها-.

يبين أبن خلدون ان هذه الأجيال الثلاثة عمرها (١٢٠) سنة ، ولا تتجاوز الدول هذا العمر في الاغلب الاعم إلاَّ إذا انعدم وجود مهاجم أو عدو ففي هذه الحالة ممكن ان يزداد عمرها.

- **أطوار او مراحل الدولة**

يرى أبن خلدون ان للدولة تمر بخمسة أطوار أو مراحل هي:

1. **طور الظفر والاستيلاء** : وتلعب فيه العصبية دوراً مهماً في الاستيلاء على الملك ويكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة بقومه في اكتساب المجد وجباية المال والحفاظ على الغنائم.
2. **طور الاستبداد** : وفيه يستبد صاحب الدولة على قومه وينفرد بالحكم دونهم ويكبحهم من التطاول عليه لاجل المشاركة في الحكم ، ويضطلع الحاكم في هذا الطور باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع ، ويحصر الحكم بين أهل عصبيته.
3. **طور تحصيل ثمرات الملك** : وهو طور الراحة والاسترخاء من أجل اقتطاف ثمرات الملك فيبذل صاحب الدولة جهده في تنظيم الجباية والموارد وإحصاء النفقات والاعتدال فيها ، كما يكثر من اكرام اتباعه ويوسع على جنوده في أرزاقهم فيباهي بهم الدولة المسالمة ويرهب الدولة المحاربة.
4. **طور القنوع والمسالمة :** يقنع صاحب الدولة في هذا الطور بما بناه اسلافه يقلدهم ولا يخرج عن اثارهم يعيش صاحب الدولة في هذا الطور في سلام مع نظرائه من الاصدقاء والاعداد .
5. **طور الإسراف والتبذير** : وفيه يكون الحاكم مستسلماً لشهواته وملذاته هادماً لما بناه اسلافه ، يخسر الملك في هذا الطور تأييد أكابر قومه ، وفي هذا الطور

يحصل الهرم الطبيعي في الدولة ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه فتنقرض الدولة.

- **ظاهرة عدم استقرار الدولة**

الدولة لدى أبن خلدون هي **(ظاهرة تتجدد في كل مرة وتنتهي فيها الدولة السياسية)** بعبارة أخرى ان الدولة تتصف باللادائمية واللاستقرار ، ويفسر أبن خلدون عدم استقرار الدولة من خلال فكرة عدم ثبوت ظواهر الاجتماع الإنساني ، فيؤكد :ان أحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر لذلك فان الدولة تبقى مؤسسة معرضة للتغيير والتبديل.

- **العلاقة بين الظلم وخراب العمران**

يعتقد أبن خلدون ان الظلم قد يكون بالعدوان على الناس في أموالهم إذ يمنعهم من السعي والكسب ؛ مما يؤدي الى تعطيل المصالح في الأسواق وحدوث الكساد، مما ينجم عن ذلك هجرة الناس من دولهم ، فضلاً عن تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق والاعتداء على حرم الناس ودمائهم واعراضهم.

ولذا يجد أبن خلدون ان الظلم مخرب للعمران ، وهذا الاخير يؤدي الى فساد الدولة ، لذلك تتبين حكمة المشرع في تحريم الظلم استناداً الى ماجاء في القران الكريم.

- **أثر الاقتصاد في الدورة الكاملة لحياة المجتمع السياسي**

يعدَّ أبن خلدون من أولئك المفكرين البارزين في الفكر الإنساني الذين اكتشفوا أهمية الاقتصاد في السياسة ، فقد لاحظ أبن خلدون أثر الاقتصاد في الدورة الحياتية الكاملة للمجتمع السياسي ، لكنه رغم أعتقاده بأن الاقتصاد السليم ضرورة لازمة ، إلاَّ أنه نظر الى الاقتصاد على انه أساس واحد من بين أسس عدة تقوم عليها الدول وتترسخ بها . فهناك

- الأفكار الدينية
- المطامح السياسية
- التطلعات الحضارية
- الرفاهية الاقتصادية.

كل هذه الاسس تؤدي الى رفاهية الدول واستقرارها.

نلاحظ ان اهتمام أبن خلدون بأثر العامل الاقتصادي في الحياة السياسية للمجتمع يتوضح في بعض ما اورده في مقدمته من فصول ، فمثلاً يوضح أبن خلدون ان الدولة تفرض ضرائب خفيفة على الفرد في بداية نشوئها إلاَّ ان المجموع الكلي للضرائب يكون كبيراً.

وباقتراب الدولة من سقوطها فإنها تفرض ضرائب ثقيلة على الفرد إلاَّ ان مجموعها الكلي يكون قليلاً ، ذلك ان الاقتصاد الريفي القائم على الزراعة والذي يصاحبه مستوى بسيط للمعيشة مع ضرائب خفيفة يجعل من الرخاء والازدهار حافزاً للعمل الدائب ، ولكن حينما يهيمن المستبدون على الدولة ويتوفر مستوى عالٍ للمعيشة تزداد مطالب الحياة المدنية بصورة متواصلة ، مما يؤدي الى فرض ضرائب اكبر واثقل على المزارعين والحرفيين والتجار فينخفض الإنتاج ويقل الربح بسبب عدم توفر الدافع عند العاملين في الحياة الاقتصادية.